

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ
أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾﴾ [الجمعة: 5]

❁ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِأَقْبَلِهَا:

في الآيات السابقة كَذَّبَ اللَّهُ تعالى اليهودَ في دَعَوَاهِمُ التَّفَرُّدَ في الفضل، وفي زَعْمِهِمْ "أنَّهُم العلماءُ الرَّبَّانِيُّونَ والأَحْبَارُ الْمُتَقَدِّمُونَ"⁽¹⁾، تكذيباً عَمَلِيّاً بِبِعْثِهِ رَسُولاً في ﴿الْأُمِّيِّينَ﴾ الَّذِينَ يَحْتَقِرُهُمُ الْيَهُودُ، ثُمَّ أَمَعْنَ سَبْحَانَهُ هُنَا في الإِزْرَاءِ عَلَيْهِمْ؛ بِتَصْوِيرِهِمْ في صُورَةِ ﴿الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾؛ فَيَشْقَى بِحَمْلِهَا مَعَ كَوْنِهَا مُسْتَوْدَعٌ ثَمَرِ الْعُقُولِ، وَفِيهَا أُلْبُغُ أَسْبَابُ السَّعَادَةِ؛ وَوَصَّمَهُمُ ﷺ بِذَلِكَ الْعَارِ الَّذِي لَا طَ بَعْدَ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَبَعْدَ أَنْ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ أَنَّهُ آتَى فَضْلَهُ قَوْماً أُمِّيِّينَ أَعْقَبَهُ بِأَنَّهُ قَدْ آتَى فَضْلَهُ أَهْلَ الْكِتَابِ، فَلَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَدْ اقْتَنَعُوا مِنَ الْعِلْمِ بِأَنْ يَحْمِلُوا التَّوْرَةَ مِنْ دُونِ فَهْمٍ، وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّ ادْخَارَ أَسْفَارِ التَّوْرَةِ وَانْتِقَالَهَا مِنْ بَيْتٍ إِلَى بَيْتٍ كَافٍ فِي التَّبَجُّحِ بِهَا وَتَحْقِيرِ مَنْ لَمْ تَكُنِ التَّوْرَةُ بِأَيْدِيهِمْ⁽²⁾، وَهَذِهِ الْآيَةُ إِلَى ذَلِكَ "تَشِيرُ إِلَى أَنَّ ذَلِكَ الرَّسُولَ الْمُبْعُوثَ فِي ﴿الْأُمِّيِّينَ﴾ قَدْ نَعَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى هُنَا بِمَا نَعَّاهُ بِهِ فِي التَّوْرَةِ، فَقَدْ نُعِتَ فِيهَا بِأَنَّهُ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ الْمُبْعُوثُ إِلَى أُمَّةٍ أُمِّيِّينَ"⁽³⁾، فَوَجَّهَ الْمُنَاسَبَةَ فِي مُنْتَهَى الْقُوَّةِ.

❁ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

(1) ﴿حُمِلُوا﴾: مَادَّةُ (حَمَلَ) لَمَعْنَى وَاحِدٍ، وَاعْتَبِرَ فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ، فَسَوَّى بَيْنَ لَفْظِهِ فِي فَعَلَ، وَفُرِّقَ بَيْنَ كَثِيرٍ مِنْهَا فِي مَصَادِرِهَا. فَقِيلَ

(1) السَّعْدِيُّ، تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ، ص: 862.

(2) ابْنُ عَاشُورٍ، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 28 / 213.

(3) مَجْمَعُ الْبَحْثِ، التَّفْسِيرُ الْوَسِيطُ: 10 / 1415.

لَا يَخْفِرَنَّ أَحَدٌ
أَحَدًا؛ فَالْكُلُّ
مَقْصَرٌ، وَاللَّهُ
تَعَالَى السَّتَّارُ،
وَالْقَادِرُ عَلَى
تَبْدِيلِ الْأَحْوَالِ

في الأثقال المحمولة في الظاهر كالشيء المحمول على الظهر: حَمَلَ، وفي الأثقال المحمولة في الباطن: حَمَلَ كالولد في البطن والماء في السحاب والثمرة في الشجرة تشبيهاً بحَمَلَ المرأة. ويقال: حَمَلْتُ الثَّقَلَ والرِّسَالَةَ والوِزَرَ حَمَلًا، قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ﴾؛ أي: كُلفوا أن يتحمَّلوها؛ أي: يقوموا بحَقِّها، فلم يحمِلوها⁽¹⁾.

(2) ﴿التَّوْرَةَ﴾: التَّوْرَة هي الكتابُ الَّذِي أنزل على موسى ﷺ، وهي آخرُ كتابٍ من كُتُب الشَّرَائِع نزل قبل القرآن الكريم، وأمَّا ما جاء بعده فكتبٌ مكملَةٌ للتَّوْرَة ومبيِّنَةٌ لها، مثل (زبور داود) و(إنجيل عيسى)⁽²⁾ ﷺ، و"لم يعتدوا بما أنزل بين القرآن الكريم وبين التَّوْرَة من الإنجيل وما قبله؛ لأنَّه لا يساوي التَّوْرَة في الجمع، ولا يَعرِّضُ⁽³⁾ هذا الكتاب - أي: القرآن الكريم - في الأحكام والحكم واللِّطائِف والمواعظ، مع ما زاد به من الإعجاز وغيره"⁽⁴⁾، والتَّوْرَة أصلٌ للإنجيل، وعمدةٌ لبني إسرائيل في أحكام الشرع، وإنَّما الإنجيل مَتَمُّ ومكْمَلٌ ومغيِّرٌ لبعض الأحكام⁽⁵⁾.

(3) ﴿أَسْفَارًا﴾: السَّفَرُ: قَطْعُ المسافة، والجمع الأسْفَارُ. والسَّفَرُ أيضًا: بياضُ النَّهار. قال السَّاجِعُ: إذا طَلَعَتِ الشَّعْرَى سَفَرًا. والسَّفَرَةُ: الكَتَبَةُ، قال الله تعالى: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ ﴿عيس: 15﴾، قال الأخفش: واحدُهم سافرٌ، مثل: كافر وكَفَرَة. والسَّفَرُ بالكسر: الكتاب، والجمعُ أسْفَارٌ. قال الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾⁽⁶⁾؛ أي: كُتُبًا عظيمة.

(4) ﴿الْقَوْمِ﴾: قَوْمٌ: اسمُ جمع، وهو مفردٌ من حيث اللفظ، جمْعُهُ: أَقْوَامٌ، وهم جماعةٌ من النَّاسِ تربطُهم وحدةٌ اللُّغة والثقافة والمصالح المشتركة، وقَوْمُ الشَّخْصِ: أَقاربُهُ، أو من هم بمنزلة الأقارب له من أهله وعشيرته، قال تعالى: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ﴾ [مريم: 55]⁽⁷⁾. واسمُ القومِ يُستعملُ في الرِّجال غالبًا، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُوا قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ﴾ [الحجرات: 11].

(1) الراغب، المفردات: (حمل).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 60/26.

(3) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (عش).

(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 181/18.

(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 783.

(6) الجوهري، الصحاح: (سفر).

(7) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (قوم).

❖ الْمَغْنَى الْإِجْمَالِي:

صِفَةُ علماءِ اليهود الَّذِينَ جحدوا نَبْوَةَ الرَّسُولِ ﷺ، وزعموا أَنَّهُ نَبِيُّ الْأُمِّيِّينَ فَقَطْ، وحالُهُمْ في عدم انتفاعهم ببشارةِ كتابِهِم السَّمَاوِيِّ - (التَّوْرَةِ) الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ موسى ﷺ يُبَشِّرُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ - ومَثَلُهُمْ في عدم الإفادة من تعاليمها وقد حفظوا أسفارَها... صفتُهُمْ وحالُهُمْ ومَثَلُهُمْ في ذلك مَثَلُ الْحَمَارِ الْمُحْمَلِ بِالْكُتُبِ الْكَبِيرَةِ الْعَظِيمَةِ النَّفْعِ، فيشقى بِحَمْلِهَا وهو لا يدري أَنَّهَا تحوي خلاصاتِ العلوم النَّافعة، وتضمُّ ثَمَارَ العقول النَّابِهة.

وَالْآيَةُ الْكَرِيمَةُ "في معرضِ التَّنْبِيهِ لِمَنْ تَقَدَّمَ التَّنَاءُ عَلَيْهِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى إِيَّاهُ؛ لئَلَّا يَكُونُوا فيما يَتْلُو عَلَيْهِمْ نَبِيُّهُمْ من الْآيَاتِ وَيَعْلَمُهُمْ من الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ مَثَلِ أَوْلَئِكَ الْمُتَمَتِّحِينَ؛ فَإِنَّهُمْ مُقْتَتَوَا وَلَعَنُوا بَعْدَ حَمْلِهِمُ التَّوْرَةَ، وزعموا أَنَّهُم التَّزَمُوا حَمْلَهُ وَالْوَفَاءَ بِهِ، فَوَعَظَ هَؤُلَاءِ بِمَثَالِهِمْ؛ لُطْفًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِهَذِهِ الْأُمَّةِ"⁽¹⁾.

❖ الْإِبْضَاحُ اللَّغَوِيُّ وَالْبَلَاغِيُّ:

عَلَّةُ فَصْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

فُصِّلَتْ جَمَلَةٌ ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ﴾ عَمَّا قَبْلَهَا لِلْقَطْعِ وَالِاسْتِنَافِ، حَيْثُ تَقَدَّمَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾؛ أَي: لَمَّا يَلْحَقُوا بِ﴿الْأُمِّيِّينَ﴾، فَرُبَّمَا تَوَهَّم الْمُتَلَقِّي دُخُولَ الْيَهُودِ فِي الْمُسْلِمِينَ وَلُحُوقَهُمْ بِهِمْ فِي الْهَدَايَةِ لِلْإِسْلَامِ، فَقُطِعَتْ هَذِهِ الْآيَةُ دَفْعًا لِدَافِ الْوَهْمِ، وَأَذْنَتْ بِأَنَّ الْيَهُودَ وَعِلْمَاءَهُمْ وَأَحْبَارَهُمْ كَالْحَمِيرِ فِي عَدَمِ الْإِنْتِفَاعِ بِالْخَيْرِ الَّذِي آتَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى إِيَّاهُ، فَهَلْ يَنْتَفِعُونَ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ فَيَدْخُلُوا فِي (آخَرِينَ) مِنْ أُمَّتِهِ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ؟.

أَخْسُ النَّاسِ
مَنْ عَطَّلَ هُدَى
آتَاهُ اللَّهُ تَعَالَى
إِيَّاهُ

الْيَهُودُ لَمْ
يَنْتَفِعُوا
بِالتَّوْرَةِ، فَلَنْ
يَنْتَفِعُوا بِمَا جَاءَ
بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 47/20.

لطيْفَةُ التَّعْبِيرِ بِ﴿مَثَلُ﴾، وإِشَارَةُ تَكَرُّرِهَا فِي آخِرِ آيَةِ الْكَرِيمَةِ:

أَقْرَبُ مَثَالٍ
لِلْعَالَمِ الْمَحْرُومِ
مِنْ نَفْعِ عِلْمِهِ
الْحِمَارُ حَالٌ
شَقَائِهِ بِحَمَلِ
أَسْفَارِ الْعُلُومِ

﴿مَثَلُ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ﴾ معناه: "الصِّفَةُ وَالْحَالُ"⁽¹⁾، وإِثَارَ لَفْظِ ﴿مَثَلُ﴾ فِي طَرَفِي التَّشْبِيهِ يُقَرَّرُ تَقَارُبُ الطَّرَفَيْنِ فِي وَجْهِ الشَّبْهِ تَقَارُبًا يَكَادُ يَكُونُ مِمَّا تَلَّةً تَامَّةً؛ لَذَا - وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ - لَمْ يَقُلِ النَّظْمُ الْكَرِيمُ: الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ... كَالْحِمَارِ...، وَإِنَّمَا أَكَّدَ الْإِلْحَاقَ فِي قُوَّةِ الشَّبْهِ بِذِكْرِ ﴿مَثَلُ﴾.

وَلَا يَزَالُ النَّظْمُ الْكَرِيمُ يُلْحِقُ عَلَى ذَلِكَ الْمَعْنَى؛ إِذْ يُكْرَرُ ﴿مَثَلُ﴾ لِلْمَرَّةِ الثَّلَاثَةِ فِي آيَةِ الْكَرِيمَةِ نَفْسِهَا، حَيْثُ يَقُولُ: ﴿يَنْسُ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ إِزْرَاءً بِالْيَهُودِ عَمُومًا وَبِأَحْبَارِهِمْ خُصُوصًا.

عَلَّةُ التَّعْبِيرِ بِالْأَسْمِ الْمَوْصُولِ ﴿الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ﴾:

الْمَوْصُولُ
عُنْصُرُ تَشْوِيقٍ
لِإِبْهَامِهِ، وَبِتَبْيُحِ
لِلتَّرْكِيبِ ذَكَرَ
جَمَلَةَ الصَّلَةِ
عَلَى الْوَجْهِ الرَّادِّ

﴿الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ﴾ "هَمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ، الْأَحْبَارُ الْمَعَاصِرُونَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ"⁽²⁾، وَفِي إِثَارِ التَّعْبِيرِ عَنْهُمْ بِالْأَسْمِ الْمَوْصُولِ ﴿الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ﴾ دُونَ أَسْمِهِمُ الصَّرِيحِ (الْيَهُودِ) إِتَاحَةً لِذِكْرِ وَجْهِ الْإِزْرَاءِ بِهِمْ؛ أَيُّ: بِجَمَلَةِ الصَّلَةِ ﴿حُمِلُوا التَّوْرَةَ﴾، وَفِي ذَلِكَ مِنَ التَّنْفِيرِ مِنْ حَالِهِمْ مَا فِيهِ.

كَذَلِكَ فِي التَّعْبِيرِ عَنْهُمْ بِالْمَوْصُولِ ﴿الَّذِينَ﴾ تَشْوِيقٌ إِلَى إِزَالَةِ إِبْهَامِهِ بِتَخْصِيصِهِ بِتَفَاصِيلِهِ الْكَاشِفَةِ، وَكُلُّ ذَلِكَ يَغِيبُ لَوْ قِيلَ فِي غَيْرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: مَثَلُ الْيَهُودِ كَمَثَلِ الْحِمَارِ.

دَلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالتَّحْمِيلِ فِي جَمَلَةٍ ﴿حُمِلُوا﴾، وَلَطِيفَةُ صَوْنِهِ مَاضِيًا:

التَّحْمِيلُ فِي جَمَلَةٍ ﴿حُمِلُوا التَّوْرَةَ﴾ مِنَ الْحَمَالَةِ - بِمَعْنَى الْكِفَالَةِ وَالضَّمَانِ، وَمِنْهُ قِيلَ لِلْكَفِيلِ: الْحَمِيلُ - لَا مِنَ التَّحْمِيلِ عَلَى الظَّهْرِ،

(1) طَنْطَاوِي، التفسير الوسيط: 380 / 14.

(2) ابن عطية، للحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 307 / 5.

والمعنى: "عَلِّمُوها، وَكَلِّفُوا الْعَمَلَ بِها فِيها، وَالتَّحْمِيلُ فِي هَذَا شَائِعٌ، يُلْحَقُ بِالْحَقِيقَةِ"⁽¹⁾.

ولعلَّ في التَّعبيرِ بالتَّحْمِيلِ إشارةٌ إلى مَعُونَتِهِمْ على حَمْلِ التَّكاليفِ، وتيسيرِ تحْفِيزِهِمُ التَّوْرَةَ وَالْعَمَلَ بِها، وَأَنَّهُ تَعَالَى "عَلَّمَهُمْ إِيَّاهَا، وَكَلَّفَهُمْ حَفْظَ أَلْفَاظِها عَنِ التَّغْيِيرِ وَالنَّسْيَانِ، وَمَعَانِيها عَنِ التَّحْرِيفِ وَالتَّلْبِيسِ، وَحُدُودِها وَأَحْكامِها عَنِ الإِهْمَالِ وَالتَّضْيِيعِ"⁽²⁾؛ ومع ذلك لم يَهْتَدُوا إلى نورِها و﴿التَّوْرَةَ فِيْها هَدَى وَنُورٌ﴾⁽³⁾ [الأنعام: 44]، ولم يَنْتَفِعُوا بِها؛ إذ لم يَعْمَلُوا بِأَحْكامِها، وَمَنْ كانَ كَذَلِكَ كانَ أبعَدَ مِنْ أَنْ يَتَهَيَّأَ لِلْبَصَرِ بِأَنْوارِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ فَالْيَهُودُ مِمَّنْ لا يَدْخُلُونَ فِي بشارَةِ ﴿لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾.

نكتة بناء الفعل ﴿حَمَلُوا﴾ لِما لَمْ يُسَمَّ فاعله:

في بناء الفعلِ ﴿حَمَلُوا﴾ لضميرِ اليهودِ تنزيهٌ لاسمه تعالى عن أَنْ يُذَكَّرَ في سياقِ التَّقْبِيحِ بِالْإِلْحاقِ بِالْحِمَارِ، وأيضًا "صيانةٌ لاسمه الشَّريفِ عن أَنْ يُذَكَّرَ معِ الْعَصِيانِ"⁽³⁾.

وإلى ذلك ففي بناءِ فعلِ التَّحْمِيلِ لغيرِ فاعله دَعَمٌ لدلالةِ إِعَانَتِهِمْ في ذلكِ الحَمْلِ الشَّريفِ؛ فلكلِّ ذلكِ طَوْيٌ ذَكَرُ الْفَاعِلِ الْحَقِيقِيِّ لِلتَّحْمِيلِ، وَأُسْنَدُ الْفِعْلِ لضميرِهِمُ الذَّمِيمِ.

أما التَّضْعِيفُ في الفعلِ ﴿حَمَلُوا﴾ فيُوحِي بِعِظَمَةِ التَّوْرَةِ، وَثِقَلِها، وَفَخامَةِ تَعالِيمِها، وَذلكَ مِنْ بابِ قولِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [الزُّمَرُ: 5]، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

بلادة الاستعارة في قوله: ﴿حَمَلُوا التَّوْرَةَ﴾:

في التَّعبيرِ بِفِعْلِ التَّحْمِيلِ معِ ﴿التَّوْرَةَ﴾ في قولِهِ تَعَالَى: ﴿حَمَلُوا

مِنَ الْأَدَبِ صِيَانَةُ
ذِكْرِ الْأَسْمِ
الْجَلِيلِ فِي
مَقَامَاتِ الذَّمِّ

ثِقَلُ تَعالِيمِ
التَّوْرَةِ وَأَحْكامِها
على نَفوسِ
اليَهُودِ

(1) الألوسي، روح المعاني: 14 / 290.

(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20 / 55.

(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20 / 55.

التَّوْرَةُ استعارةٌ تصرّحيةٌ تبعيّةٌ؛ وذلك بتشبيه تكليف اليهود بالعمل بتكاليف التّوراة بالحمل على الدّوابّ، وتصوير تكليفهم بتحميلها، ثمّ حذف المشبّه وبقيت قرينته، وهي **التَّوْرَةُ**.

وفي ذكر التّحميل تهيئةٌ دلّاليةٌ لذكر **الحِمار**، الذي هو أخصّ الدّوابّ بالتّحميل عليه.

معنى (أل) في التَّوْرَةُ:

(أل) في **التَّوْرَةُ** تعريفيّةٌ للعهد الذّهنيّ؛ أي: "الكتاب الذي أنزل الله على موسى ﷺ" (1)، "وهي أصلُ الكتُب المنزلة على بني إسرائيل وأعظمها، بل هي أعظمُ الكتُب فيما نعلم بعد القرآن" (2)، و"هي خمسةُ الأسفار التي تلقّاها موسى ﷺ من الله ﷻ في جبل سيناء بعد خروج اليهود من مصر، ثمّ ألحق بها أسفارُ الأنبياء" (3).

و"التّوراة معناها: الضياء والنور. من قول العرب: قد وريت بك زنادي؛ أي: أضاءت بك زنادي. قال: وأصلُ التّوراة: تَوْرِيّةٌ، على وزن: تَفْعَلَةٍ، فصارت الياء ألفاً؛ لِتَحَرُّكِهَا وانفتاح ما قبلها. ويجوز أن تكون: تَفْعِلَةٌ، فيكون أصلها: تَوْرِيّةٌ، فَتَنَقَّلَ من الكسر إلى الفتح؛ كما تقول العرب: جاريةٌ وجاراةٌ، وناصيةٌ وناصاةٌ، وباقيةٌ وبقاةٌ. أنشد الفراء:

فما الدُّنيا بباقةٍ لحَيٍّ *** وما حيٌّ على الدُّنيا بباقيٍّ" (4)

و"يرى علماء المسلمين أنّ التّوراة قد انتابتها وانتابت بني إسرائيل من الحوادث ما أدّى إلى ضياعها وتحريفها، فقد ارتدّ بنو إسرائيل، ورجعوا إلى عبادة الأوثان، وكانوا يُؤْمِنُونَ تارةً ويرتدّون

(1) الصالحى ابن البرد، الدر النقي في شرح ألفاظ الخرقى: 818 / 3.

(2) العثيمين، تفسير العثيمين: 292 / 1.

(3) أيوب، أحمد بن سليمان، وآخرون، موسوعة محاسن الإسلام ورد شبهات اللّثام: 243 / 2.

(4) الأتباري، الزاهر في معاني كلمات الناس، (قولهم: قد نَظَرَ في التوراة): 72 / 1.

التَّوْرَةُ هي
الكتاب الذي
أنزل الله على
موسى، وهي
أعظمُ الكتُب
بعد القرآن

أخرى ويسقطون في الوثنية، وكان يُسلط عليهم من الملوك من يُبيدُهم كبختنصر⁽¹⁾.

معنى ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾:

﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ للتراخي الرتبّي؛ أي: لم يعملوا بالتّوراة بعد تحقّق أخذهم إياها، وبعد تبَيّنهم أنوارها وهداياتها، وبعد إقامة الحجّة عليهم باستبصارهم الحقّ وصراط الله المستقيم، فنكثوا وانتكسوا وارتكسوا، فكانت جريمتهم قطعياً، وعقوبتهم مؤكّدة، وذلك ما حصل فعلاً، حيث طردهم الرّسول ﷺ، وأراح من ضلالهم العباد، وطهر من رجسهم البلاد.

معنى ﴿لَمْ﴾ وأثرها في المضارعة في جملة ﴿لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾:

﴿لَمْ﴾ في جملة ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ نافية لقبولهم ما تقدّم من مُنَبّت تحميلهم في ﴿حَمَلُوا التّورَةَ﴾، جازمة بتعمّدهم عدم قبول العمل بها، قالبة حال اليهود إلى اللّعة والطرد من رحمة الله بعدم التزامهم العمل بها، كما قلّبت دلالة نفي الفعل ﴿يَحْمِلُوهَا﴾ إلى الماضي، إلّا أنّ النّفي بها هنا مستمرّ متجدّد، خصوصاً أنّ التّوراة قد حُرّفت وبُدّلت من أحبارهم، فكما نفّت ﴿لَمْ﴾ عن اليهود العمل بتكاليف التّوراة كذلك نفّت تجدّد قبولهم هداها؛ ليصير المعنى إلى دوام إصرارهم على الضلال، وثبات عقيدتهم على الكفر.

دلالة الحمل في جملة ﴿لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾:

الحمل في جملة ﴿لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ يعني: العمل بتعاليم التّوراة، وأوامرها، ونواهيها؛ أي: "لم يعملوا بما فيها من الوصيّة باتّباع عيسى ﷺ إذا جاءهم، ثمّ محمّد ﷺ إذا جاء، فهي - أي: التّوراة

تتضاعف مدّة
أهل الضال
كلّما تظافرت
الأدلة على
بيان الحقّ ولم
يهتدوا إليه

النّفي بـ(لم)
يسلب المادّة
الغويّة
دلالتها، كما
يسلب المادّة
الصّرفيّة دلالتها

التّوراة تُبسّر
بمحمّد ﷺ؛
فإنكار اليهود
نبوته تكذيب
بتوراتهم

(1) هوسما وآخرون، موجز دائرة المعارف الإسلامية: 26/1.

- ضارّة لهم بشهادتها عليهم، قاذفة لهم في النار من غير نفع أصلاً⁽¹⁾؛ فكان كلُّ خبرٍ لم ينتفع بما حمل كمثل حمارٍ عليه أسفار⁽²⁾.

بلغة الطّباقي بين جملة ﴿حُمِّلُوا التَّوْرَةَ﴾ وجملة ﴿لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾:

الحسن
البديعي في
القرآن الكريم
يسهم في
تحقيق مطابقة
مقتضى الحال

وبين إثبات فعل التّحميل في قوله تعالى: ﴿حُمِّلُوا التَّوْرَةَ﴾ ونفي حملهم في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ طباق سلبٍ يُجَلِّي سوء الأدب، وبشاعة الجرم، ويقرّر شدة الضلال الذي لفّهم.

والى ذلك فالطّباقي يكشف - عن بُعد - ما أريد لهم من النور والهدى، وما اختاروه لأنفسهم من الضلال والعمى، ومن دون الطّباقي تخفّت تلك الإشارة؛ فكان عطاء الطّباقي مسهمًا في تحقيق المطابقة لمقتضى الحال.

لطيفة عقْد التشبيه بالكاف في جملة ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ﴾:

الكاف أمثل
أداة لإظهار
التّلاخُم وتطابق
الحال بين طرفي
التّشبيه المُعَبَّر
عنهما ب(مَثَل)

لما استوفى طرفا التشبيه المثليّة، وهما: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ﴾، ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾، وتقرّر تأكّد المشابهة بل المماثلة بينهما جاء الرّبط لعقْد تلك المماثلة بالأداة الخاطفة (الكاف) في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ﴾، وذلك فاعلٌ في تقوية لُحْمَةِ الرّبط، وتقريب طرفي الإلحاق، وكأنّهما ملتحمان بتلك المماثلة، كناية عن شدة المماثلة وقوّة الإلحاق.

فلا يحتملُ الأسلوبُ أداةً أخرى غير (الكاف) وقد أحاطتها مادّة المثليّة من حوالِها، فلا يتأتّى أن يقال: مثلُ الذين حُمِّلوا التّوراة ثم لم يحملوها شبه مثلِ الحمار، أو مثلُ مثلِ الحمار، أو كأنّهم مثلُ الحمار... إلخ.

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 55/20.

(2) ابن عطية، لحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 307/5.

معنى (أَل) في ﴿الْحِمَارِ﴾:

(أَل) في ﴿الْحِمَارِ﴾ لتعريف الجنس بأحد أفراده، مِنْ دُونِ أَنْ تدلَّ على حمارٍ معيَّنٍ، وهي مُؤَدِّةٌ بتمامِ بِلَادَةٍ ذلك ﴿الْحِمَارِ﴾ الحاملِ أسفارًا، واكتمالِ صفة الغباء فيه، فهذا الحمارُ مُستَجْمَعُ صفاتِ ﴿الْحِمَارِ﴾، وهو دُونُ غيره ما يَصِحُّ تصويرُ أخبارِ اليهود في صورته، وإلا لقل: كمثِلِ حمارٍ يحملُ أسفارًا؛ ففي ذلك التَّعْرِيفِ مزيدٌ تحقيرٍ لسلوكهم، وتفسيرٍ مِنْ مِثْلِ صنيعهم.

وتخصيصُ الحمارِ بالتَّشْبِيهِ به لَأَنَّهُ كَالْعَلَمِ فِي الْجَهْلِ⁽¹⁾، وهو أبلُّه الحيوانِ وَمَثَلٌ فِي الْغَبَاوَةِ⁽²⁾، والحمارُ مِنْ بَيْنِ حيواناتِ الرُّكُوبِ جميعًا أَكْثَرُهَا هَوَانًا عَلَى النَّاسِ، وَأَخْسَهَا مَطِيَّةً لِلرُّكُوبِ؛ لَا يَتَّخِذُهُ كِرَامُ النَّاسِ مَرْكَبًا لَهُمْ.

دلالة التَّعْبِيرِ بِفَعْلِ الْحَمْلِ ﴿يَحْمِلُ﴾، وإشارة المضارعة فيه:

والتَّعْبِيرُ بِفَعْلِ الْحَمْلِ فِي جُمْلَةٍ ﴿يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ يدلُّ على ثَقُلِ الْحَمْلِ، وَشِدَّةِ وَطْأَتِهِ عَلَى الْحِمَارِ الْحَامِلِ. وَالْمُضَارَعَةُ فِي الْفِعْلِ ﴿يَحْمِلُ﴾ تُجَدِّدُ عَلَيْهِ وَطْأَةَ ذَلِكَ الْعِبَاءِ وَالثَّقَلِ، وَتَعَكُّسُ مَدَى مُعَانَاتِهِ مِنْ ذَلِكَ الْحَمْلِ؛ وَهُوَ مَا يُبَيِّنُ تَعَاظُمَ خُسْرَانِ الْيَهُودِ بِفَقْدَانِهِمُ الْإِنْتِفَاعَ بِمَحْمُولِهِمُ الْعَظِيمِ الْفَخِيمِ (التَّوْرَةِ)، وَاسْتِمْرَارَ ذَلِكَ الْخُسْرَانِ وَتَجَدُّدَهُ عَلَى مَرِّ الْأَزْمَانِ، وَتُسْهَمُ فِي تَأْدِيَةِ التَّشْبِيهِ أَغْرَاضُهُ.

دلالة التَّعْبِيرِ بِ﴿أَسْفَارًا﴾ دُونَ غَيْرِهَا ك﴿كُتُبًا﴾، وَنَكْتَةُ تَنْكِيرِهَا:

الْأَسْفَارُ جَمْعُ (سَفَرٍ)، وَهُوَ الْكِتَابُ الْكَبِيرُ الْمُسْفَرُّ عَمَّا فِيهِ⁽³⁾، وَفِي اصْطِفَاءِ التَّعْبِيرِ بِ﴿أَسْفَارًا﴾ دُونَ غَيْرِهَا ك﴿كُتُبًا﴾ إِضْفَاءٌ لِلْقُدْسِيَّةِ عَلَى ذَلِكَ الْمَحْمُولِ؛ وَذَلِكَ يَعْنِي: أَنَّ ذَلِكَ الْمَحْمُولَ أَشْرَفُ

حَامِلُ الْهُدَى
مِنْ دُونِ الْعَمَلِ
بِهِ فِي خِسَّةٍ
أَغْبَى الْحَمِيرِ
وَأَدْخَلِهِمْ فِي
الْبِلَادَةِ

جَرْمَانُ الْيَهُودِ
وَشَقَاؤُهُمْ دَائِمٌ
مُسْتَمِرٌّ، يَزْدَادُ
تَعَاظُمًا بِفَقْدِ
الْإِنْتِفَاعِ بِمَا
حَمَلُوهُ

تَوَحَّدُ لِلْمَحْمُولِ
يُوحِي بِتَوَحُّدِ
الْحَامِلِ

(1) الألويسي، روح المعاني: 14 / 290.

(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20 / 56.

(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20 / 56.

محمولٍ يمكن أن يُحمَلَ، ومع ذلك لا يَنْتَفِعُ به الحمارُ الحامل، بل يُرْهَقُ به وَيَشْتَقِي.

ومن بديعِ اختصاصٍ ﴿أَسْفَارًا﴾ بالذكر أن ما حُمِّلَهُ اليهودُ أيضًا إنما هو (أسفارُ التَّوراة) العظيمة، فإذا تَوَحَّدَ المحمولُ كان أَزْرَى على اليهودِ بإلحاقهم بالحمار الحامل، وكأنَّ تَوَحَّدَ المحمولِ يوحي بِتَوَحُّدِ الحامل.

وفي تنكيرِ ﴿أَسْفَارًا﴾ تفخيمٌ وتعظيمٌ يزيدُها قَدَرًا ورفعَةً شأنٍ، ويجعلُها بركةً على مَنْ يتَّصِلُ بها، ومع ذلك حُرِّمَ الحاملُ فخامتُها وبركتُها، وذلك ينعكسُ على صورةِ ﴿الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ زِرايةً وإهانةً وتقبيحًا.

موقعُ جملةِ ﴿يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ من التَّركيب:

جملةُ ﴿يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ في محلِّ نصبٍ على الحالِ من ﴿الْحِمَارِ﴾؛ لتعريفه لفظًا بـ (أل)؛ أي: حاملًا أسفارًا؛ أي: أنَّ حالَ هؤلاءِ اليهودِ ﴿الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ ليس كحالِ أيِّ حمارٍ، بل كحالِ ﴿الْحِمَارِ﴾ حاملًا أسفارًا تُثْقِلُ كاهله غيرَ منْتَفِعٍ بها، وفي ذلك زيادةٌ تشنيعٍ لحالهم، فيتفاقمُ عليهم النَّدمُ والهوانُ، ويتضاعفُ عليهم التَّحقيرُ والخطأ.

أو الجملةُ في محلِّ جرٍّ "صفةً لـ ﴿الْحِمَارِ﴾؛ إذ ليس المرادُ به حمارًا معيَّنًا؛ فهو في حُكم النِّكرة؛ إذ المرادُ به الجنس" (1).

نكتةٌ حذفِ صفةٍ ﴿أَسْفَارًا﴾:

في قوله تعالى: ﴿أَسْفَارًا﴾ حذفٌ لصفةٍ هذه الأسفار؛ أي: كتبًا عظامًا كبارًا من كتب العلم، وفي حذفِ صفةٍ ﴿أَسْفَارًا﴾ بعدَ تنكيرها وإطلاقها عن القيودِ إيحاءٌ بأنَّها أسفارٌ جليلةٌ، "لا يُعْلَمُ

في الحال
أو الوصفِ
زيادةُ تشنيعِ
حالِ اليهودِ،
وتضاعفُ صفةِ
التَّحقيرِ لهم

الإيماءُ إلى قُبْحِ
صنيعِ اليهودِ
وشُؤْمِ عنادِهِم

(1) خان محمد صديق، فتح البيان، في مقاصد القرآن: 133/14.

قَدَرُهَا وخطَرُهَا⁽¹⁾، وفي ذلك الحذف والإطلاق بيانٌ لقبح صنيع اليهود، وشؤم عنادهم، وكِبَرِهِم على العرب ﴿الْأُمِّيِّينَ﴾، الَّذِينَ نَقَلَ اللَّهُ تَعَالَى النُّبُوَّةَ إِلَيْهِمْ، وجَعَلَهَا فِيهِمْ، بَعْدَ انحطاطِ اليهود إلى رُتَبَةِ الحَمِيرِ بِلَادَةً وَغِبَاءً.

نوعُ التَّشْبِيهِ، وبلاغتهُ في قوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا﴾ الآية:

التَّشْبِيهُ في قول الله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ تشبیه تمثيلي، شَبَّهَ فِيهِ مَعْقُولًا بِمَحْسُوسٍ؛ حَيْثُ شَبَّهَ حَالِ الْيَهُودِ الَّذِينَ كَلَّفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِتَكَالِيفِ التَّوْرَةِ - وَفِيهَا هُدًى وَنُورٌ - وَصَوَّرَ تَخَاذُلَهُمْ عَنِ الْقِيَامِ بِحَقِّهَا، وَعَدَمَ انْتِفَاعِهِمْ بِنُورِهَا وَهُدَايَا بِمَحْسُوسٍ هُوَ حَالُ شَقَاءِ الْحِمَارِ الَّذِي يَحْمِلُ حِمْلًا مِنْ كُتُبٍ كَبِيرَةٍ عَظِيمَةِ النَّفْعِ، وَهُوَ لَا يَدْرِي قَدَرَهَا، وَلَا يَنْتَفِعُ بِعُلُومِهَا، بَلْ يَكْدُ بِصُحْبَتِهَا. "وبذلك كان تمثيل حالهم بحال الحمار يحمل أسفارًا تمثيلًا للمعنى المجازي بالمعنى الحقيقي، وهو من لطائف القرآن"⁽²⁾.

وَالْوَجْهُ الْجَامِعُ بَيْنَ طَرَفِي التَّشْبِيهِ هُوَ (حُصُولُ الشَّقَاءِ الشَّدِيدِ بِسَبَبِ مَا فِيهِ أُلْبُغُ أَسْبَابِ النَّفْعِ وَالسَّعَادَةِ)، وَالتَّشْبِيهُ كَاشَفٌ أَتَمُّ الْكَشْفِ عَنْ شِدَّةِ غِبَاءِ الْيَهُودِ، وَبِلَادَةِ تَفْكِيرِهِمْ، وَشَوْمِ فِعَالِهِمْ، مُحَقِّقٌ غَرَضَهُ مِنْ تَحْقِيرِهِمْ، وَتَقْبِيحِ الْمَخَالَفَةِ بَيْنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ⁽³⁾، وَالتَّنْفِيرِ مِنْ مِثْلِ سُلُوكِهِمْ فِي إِهْمَالِ أَنْوَارِ الْوَحْيِ الشَّرِيفِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّى الْمُسْلِمِينَ مِنْ سَوْءِ حَالِهِمْ.

وَهَذَا الْمَثَلُ "يَلْحَقُ مَنْ لَمْ يَفْهَمْ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ، وَلِهَذَا قَالَ مِيمُونُ بْنُ مِهْرَانَ: يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ، اتَّبِعُوا الْقُرْآنَ قَبْلَ أَنْ يَتَّبِعَكُمْ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ"⁽⁴⁾، وَكَذَلِكَ فِي هَذَا الْمَثَلِ دَلِيلٌ عَلَى سَوْءِ حَالِ الْعَالَمِ الَّذِي لَا يَعْمَلُ بِعِلْمِهِ، وَسَوْءِ حَالِ الْمُنْكَرِينَ مَعَ عِلْمِهِمْ⁽⁵⁾. وَتَزْدَادُ جَرِيمَةُ مَنْ سَلَكَ طَرِيقَهُمْ حِينَ يَعْرِفُ قَدْرَ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ثُمَّ لَا يَنْتَفِعُ بِهِ؛ فَإِنَّ الْيَهُودَ "وَأَنْ عَرَفُوا التَّوْرَةَ فَحِينَ لَمْ يُعْظَمُوهَا حَقَّ تَعْظِيمِهَا، وَكَذَّبُوا بِمَا فِيهَا كَانُوا

(1) اللاتريدي، تأويلات أهل السنة: 8 / 10.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 214 / 28.

(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 62 / 20.

(4) الواحدي، التفسير الوسيط: 295 / 4.

(5) الألوسي، روح المعاني: 290 / 14.

ما أسوأ حال
العالم الذي لا
يعمل بعلمه!
وحال التكرين
مع علمهم!

كَأَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ قَدْرَهَا وَخَطَرَهَا، فَصَارَ مَثَلُ الْهَمَارِ يَحْمِلُ
الْكَتَبَ، لَا يَعْلَمُ مَا قَدْرُهَا وَخَطَرُهَا، وَهَذَا التَّأْوِيلُ أَقْرَبُ؛ لِأَنَّهُ قَالَ فِي
سِيَاقِ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿يُنْسِ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، فَثَبَّتَ
أَنَّ الْمَعْنَى مِنَ التَّمَثِيلِ بَدَايَةٌ إِنَّمَا هُوَ التَّكْذِيبُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ (1).

على أَنَّ "التَّكْذِيبَ وَالتَّحْرِيفَ" إِنَّمَا كَانَ مِنْ عَمَلِ كِبَرَائِهِمْ
وَرُؤُسَائِهِمْ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ كَذَبُوا، وَلَمْ يَعْرِفُوا قَدْرَهَا - أَيِ: التَّوَارِ -
حِينَ كَذَبُوا؛ لِيَزَجَرَ مُتَّبِعِيهِمْ عَنْ اتِّبَاعِهِمْ، وَيُبَيِّنَ أَنَّ رُؤُسَاءَهُمْ لَيْسُوا
مِمَّنْ يَسْتَحِقُّونَ الْإِتِّبَاعَ، وَفِيهِ أَيْضًا زَجْرٌ لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَسْتَخِفُّوا كِتَابَ
اللَّهِ تَعَالَى، وَالْعَمَلُ بِمَا فِيهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ (2).

عَلَّةُ فَصْلِ جَمَلَةٍ ﴿يُنْسِ مَثَلُ الْقَوْمِ﴾ عَمَّا قَبْلَهَا:

فُصِّلَتْ جَمَلَةٌ ﴿يُنْسِ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ عَنْ
جَمَلَةِ التَّشْبِيهِ السَّابِقَةِ ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا﴾ لِكَمَالِ الْإِنْقِطَاعِ الْأَسْلُوبِيِّ
- لَا الدَّلَالِيِّ - بَيْنَهُمَا؛ إِذْ إِنَّ أَسْلُوبَ جَمَلَةِ ﴿يُنْسِ مَثَلُ الْقَوْمِ﴾ أَسْلُوبُ
ذَمٍّ، وَهُوَ إِنْشَاءٌ غَيْرُ طَلْبِيٍّ، وَأَسْلُوبُ جَمَلَةِ التَّشْبِيهِ قَبْلَهَا أَسْلُوبُ
إِخْبَارٍ عَنْ حَالِهِمْ؛ فَهَمَا مُخْتَلِفَا الْمَهَيِّعِ الْأَسْلُوبِيِّ.

أَمَّا مَعْنَاهُمَا فَمَتَرِاطَانٌ؛ حَيْثُ إِنَّ الْخَبَرَ الْمُتَقَدِّمَ ﴿مَثَلُ الَّذِينَ
حُمِلُوا﴾ يُؤْذِنُ بِالذَّمِّ الْلاحِقِ وَيُهَيِّئُ لَهُ؛ فَلَيْسَ الْمَقْصُودُ بِكَمَالِ
الْإِنْقِطَاعِ فِي بَابِ الْفَصْلِ وَالْوَصْلِ الْبَلَاغِيِّ بَتَرِ الْعِلَاقَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ بَيْنَ
الْجُمْلَتَيْنِ، وَإِلَّا لَكَانَ الْكَلَامُ مُتَعَادِيًا.

معنى ﴿يُنْسِ﴾، وبيان فاعليها والخصوص بالذم بها:

﴿يُنْسِ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُنْسِ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ
اللَّهِ﴾ فَعْلٌ لِإِنْشَاءِ ذَمٍّ هَؤُلَاءِ الْيَهُودَ، الَّذِينَ شَقُّوا بِاسْتِصْحَابِ مَا فِيهِ
أَبْلَغُ أَسْبَابِ السَّعَادَةِ - أَيِ: التَّوَارِ - فَحَقَّ لَهُمُ الذَّمُّ، وَحَقَّ عَلَيْهِمْ

تكذيب اليهود
للقرآن تكذيب
للتوراة التي جاء
بها موسى

(1) للتازيدي، تأويلات أهل السنة: 8/10.

(2) للتازيدي، تأويلات أهل السنة: 9/10.

العذاب. وفاعل الذمّ مذکور مضاف لما فيه (أل)، وهو قوله: ﴿مَثَلُ الْقَوْمِ﴾، وهو موح بالخصوص بالذمّ المحذوف المفهوم من سياق الكلام؛ أي: بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله (مثلهم)؛ أي: تشبيههم بالحمار يحمل أسفاراً، ثم حذف؛ لأنه قد تقدّم ذكره⁽¹⁾، وفي إعادته أكثر من ثلاث مرّات إتحال للكلام، وهذا من تفنّات القرآن⁽²⁾. أو المخصوص بالذمّ هو ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا﴾، أقيم مقام المخصوص المحذوف؛ إذ التقدير: بئس مثل القوم مثل الذين كذبوا بآيات الله، فحذف المخصوص (مثل) لئلا يثقل الكلام، ثم أقيم ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا﴾ مقامه، فأعرب إعرابه⁽³⁾.

وذكر الزمخشري في الكشف أنّ فاعل ﴿بئس﴾ ضمير مستتر مفسّر بتميّز محذوف، والمخصوص بالذمّ مذکور هو ﴿مَثَلُ الْقَوْمِ﴾، والتقدير: بئس مثلاً مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله⁽⁴⁾.

"وَتُعْصَبُ بَأَنَّ سَبِيهِ نَصَّ عَلَى أَنَّ التَّمْيِيزَ الَّذِي يَفْسِّرُ الضَّمِيرَ الْمُسْتَرْتَفِي فِي بَابِ نَعَمْ لَا يَجُوزُ حَذْفُهُ"⁽⁵⁾.

والمعنى: "ساء حال الذين كذبوا بكتاب الله تعالى؛ فهم قد ضمّوا إلى جهلهم بمعاني التّوّارة تكذيباً بآيات الله تعالى وهي القرآن"⁽⁶⁾.

وفي هذا الذمّ "ذمّ لمثلهم، والمراد به ذمهم، واليهود كذبوا بالقرآن وبالتّوّارة حين لم يؤمنوا بمحمّد ﷺ"⁽⁷⁾.

و"هذا المثل وإن كان نصّاً في اليهود فهو لجميع قراء السّوء من كلّ ملّة؛ لاشتراكهم معهم في وجه الشّبه، كما أنّ مثل الكلب في الأعراف على هذا النّحو، وكأنّه لم يدخل سبحانه هذه الأمّة في ذلك صريحاً؛ إشارة إلى حفظها من غير أن يكلّها إلى نفسها، كما

(1) النحاس، إعراب القرآن: 4/ 281، والتّسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 481، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1415.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 214.

(3) الألوسي، روح المعاني: 14/ 290.

(4) الزمخشري، الكشف: 4/ 530.

(5) الألوسي، روح المعاني: 14/ 290.

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 214.

(7) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 295.

أَنَّهُ آتَاهَا الْعِلْمَ مَعَ الْأُمِّيَّةِ مِنْهَا وَمِنْ رَسُولِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكِلَهُمْ إِلَى كِتَابِيَّةٍ، وَلَا تَقْدُمَ عِلْمٌ مَا، وَلَا تَكْلِفُ لَشَيْءٍ⁽¹⁾.

دلالة المثل في جملة «بئس مثل القوم»:

والمقصود بالمثل في جملة «بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله» النعت والصفة؛ أي: "بئس النعت والصفة صفة الذين بلغ كذبهم مبلغ الكذب على الله تعالى؛ لأن الكاذب في العباد موصوف بالشر، فإذا بلغ كذبه مبلغا يكذب على الله تعالى علم أنه في النهاية في الشر، فكأنه يقول: صفة الذين كذبوا على الله تعالى في الغاية من الشر والقبح، أو يقول: بئس مثل الذين كذبوا بآيات الله؛ لأن الله تعالى ضرب أمثال المشركين بكل ما يستخبث، ويستقبح، وضرب أمثال المؤمنين بكل حسن وطيب⁽²⁾.

و"الوصف وإن كان في الظاهر للمثل فهو راجع إلى «القوم»، فكأنه قال: بئس القوم قوم مثلهم هكذا⁽³⁾.

نكتة استعمال لفظة «القوم»، ومعنى (أل) فيها:

(أل) في «القوم» لتعريف العهد الذكري؛ إذ هم «الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها». وفي التعبير عنهم بـ«القوم» تهكم بهم؛ لأن كلمة «القوم» غالباً ما تستعمل في الرجال العقلاء، وفي ذلك دلالة على أنهم استوجبوا تلك المذام واستحقوها، بتعطيلهم عقولهم في فهم الحق الذي جاءت به توراتهم.

محل لفظة «الذين» من الإعراب:

تقع لفظة «الذين» من التركيب موقع صفة «القوم»⁽⁴⁾، والصفة تدل على تأصلها في موصوفها، وفي هذه الصفة افتضح أمر اليهود،

الكذب على
الله سبحانه،
والتكذيب بآياته
يستوجب أبلغ
الذم

استوجبوا أنواع
الذم بتعطيلهم
عقولهم في فهم
الحق في توراتهم

قوام قوميّة
اليهود نبذ الحق،
والاعتصام
بالكذب، ودوام
ظلم النفس
والآخر

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 56/20.

(2) للتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/10.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 540/30.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 214/28.

وتعرى قوام قوميتهم الخبيثة، وأنها مبنية على التكذيب بآيات الله تعالى، والواقع شاهد بذلك؛ فإنهم يتقوّمون بنَبذِ الحق، ورفض الهدى، والاعتصام بالكذب والضلال، وظلم أنفسهم وغيرهم.
علة التعبير بالموصول في قوله: ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾:

التعبير بالموصول في قوله: ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ يهيئ لذكر جملة الصلة، بعد التشويق إليها بما فيه من إبهام، وقد "جعلت الصلة في قوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ﴾ لأهل الكتاب مقررًا للتّمثيل في قوله: ﴿كَمَثَلِ الْخِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾" (1).
 و﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ هم اليهود، الذين كذبوا بآيات الله الدّالة على صحّة نبوة محمد ﷺ (2).

دلالة التعبير بالتكذيب، ونكتة تضعيف عين الفعل ﴿كَذَبُوا﴾:

في التعبير بالتكذيب في قوله تعالى: ﴿بئسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ دلالة على أنّ اليهود تعمّدوا التكذيب على علمٍ عنادًا منهم وكُفْرًا (3)، فحقّ عليهم العقاب.
 وفي تضعيف عين الفعل ﴿كَذَبُوا﴾ تهيئة لتعديّة فعل التكذيب، ودلالة على وقوعه منهم بكثرة، وإلى ذلك ففي تضعيفها إلماح إلى شدة جرم التكذيب بآيات الله تعالى، وأنّه من الخطورة وثقل التّبعة بحيث لا يُحتمل، ولا يُحتمل عقابه.

معنى الباء في القيد ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾:

و(الباء) في القيد بالجارّ والمجرور ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ للإلصاق على أصل الوضع؛ إذ التكذيب يتعدّى إلى الآيات من دون حرفٍ، فيقال: كَذَبَ آيَاتِ اللَّهِ؛ لكنّ زيادتها ضرورةً لبيان فظاعة تكذيبهم الملتصق بآياته ﷺ.

الموصل يُمهّد
 لذكر جملة
 الصّلة؛ فيروى
 الشّوق المثار
 بإبهامه

اليهود يتعمّدون
 التكذيب بآيات
 الله على علمٍ
 عنادًا منهم
 وكُفْرًا

تكذيب آياته ﷺ
 من الفظاعة
 بمكان

(1) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الرب: 411/15.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/530.

(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/56.

أُوتِيَ الْيَهُودُ
مِنَ الْآيَاتِ كَثْرَةً
وَتَنوعًا مَا هُوَ
جَدِيرٌ بِخُفْلِهِمْ
عَلَى التَّصَدِيقِ
بِالرَّسُولِ ﷺ

الظُّلْمُ يَحُولُ
بَيْنَ الظَّالِمِ
وَبَيْنَ هِدَايَةِ اللَّهِ
تَعَالَى وَتَوْفِيقِهِ

دلالة التعبير بالآيات، ونكتة جمعها وإضافتها إلى الاسم الأعظم:

المراد بـ (آيات الله) هنا "الآيات الدالة على صحة نبوة محمد ﷺ، وهو قول ابن عباس ومقاتل، وقيل: الآيات: التوراة؛ لأنهم كذبوا بها حين تركوا الإيمان بمحمد ﷺ، وهذا أشبه هنا" (1).

وفي جمع الآيات وإضافتها إلى الاسم الأعظم دلالة على شرفها وعلو شأنها، وعلى كثرتها وتنوعها كثرة جدرة بحمل المخاطب والمتلقي لها على التصديق بها والعمل بمقتضاها، فإذا كذبوها بعد ذلك كان تكذيبهم دليلاً على تراكم غشوات الضلال على أبصارهم، وظلام نفوسهم.

معنى الواو في جملة ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾:

(الواو) في جملة ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ استنافية، والاستئناف بياني، والجملة بعدها "لا محل لها" (2)، وهي "تذييل قصيد به بيان الأسباب التي أدت إلى عدم توفيق الله تعالى لهم إلى الهداية" (3)؛ "لأن الله تعالى حرّمهم اللطف والعناية بإنقاذهم؛ لظلمهم بالاعتداء على الرسول ﷺ بالتكذيب دون نظر، وعلى آيات الله تعالى بالجحد دون تدبر" (4).

وجعل البقاعي الواو عاطفة، فقال: "لما كان التقدير: (فاستحقوا الوصف بجميع المدام؛ لأنهم ظلّموا أشدّ الظلم) عطف عليه قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾" (5).

معنى ﴿لَا﴾ في جملة ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾:

﴿لَا﴾ في جملة ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ نافية، قاطعة بانتفاء

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 540/30.

(2) الدعاس، إعراب القرآن: 342/3.

(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 382/14.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 214/28.

(5) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 57/20.

هداية الله تعالى عن هذا الصنف، ممَّن يُؤْتَى الكتاب، وتُتلى عليه الآيات، ويُعلَّم الحكمة، ثم يُحرَّم هدايتها، وتَعشو عيناه عن أنوارها.
نكتة تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي:

في تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي المنفي في جملة ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ دلالة على كون حجب الهداية عن هؤلاء اليهود الظالمين مقصوراً على الله تعالى، وهو بأمره وحده؛ فالله تعالى وحده القادر على هداية مَنْ يشاء من صالح العباد، وهو تعالى وحده القادر على حجب الهداية عمَّن يشاء من ظالمهم، وفي القرآن الكريم: ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ۝﴾ [الزوم: 29؛ أي: لا أحد.

الله تعالى
وحده القادر
على هداية مَنْ
يشاء، وعلى
حجبها عمَّن
يشاء

دلالة التعبير بالهداية في الفعل ﴿يَهْدِي﴾:

المقصود بالهداية في جملة ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ هداية التوفيق والتسديد والمعونة؛ لأنها من الله تعالى، بخلاف هدايات البشر؛ فإنها هداية إرشاد وتبيين وتوجيه، والمعنى: والله تعالى لا يوفق الظالمين إلى الإيمان، ولا يعينهم على اعتناقه، ولا يسددهم، بل يخذلهم، ويكلهم إلى غيهم وضلالهم.

هداية الله
تعالى هداية
توفيق وتسديد،
أما هداية غيره
فهداية إرشاد
وتوجيه

دلالة إظهار ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾:

في إظهار ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ دون إضمارهم - أي: اليهود - إفصاح بظلمهم، وفضح لها، وفي إثارة وصف الظلم من بين جرائمهم إحياء بأنه أخص جرائمهم، وأقوى رابطة لقوميتهم، والواقع منهم عبر تاريخهم المظلم شاهد على ذلك، مؤكداً له.

الظلم أخص
جرائم اليهود
وأقوى رابطة
لقوميتهم

معنى (أل) في ﴿الظَّالِمِينَ﴾:

(أل) في ﴿الظَّالِمِينَ﴾ لتعريف العهد الذكري؛ إذ ﴿الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ هم ﴿الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾. ولا مانع من إطلاق الحكم؛ ليشمل كل ﴿الظَّالِمِينَ﴾ الذين يتعمدون الظلم

حُجِبَ الهداية
الإلهية عن كل
ظالم وعن كل
قومية ظالمة
قانون إلهي عام

مَن استمرَّ
الظلم صار
سلوكًا لازمًا
له ثابتًا فيه،
وهداية الله
تعالى محجوبة
عنه

الظلم كله
عاقبته وخيمة،
وعقوبته أليمة

بلا جهلٍ به وبعقوبيته، "أَمَّا مَنْ ظَلَمَ عَنْ جَهْلٍ، أَوْ فَسَقٍ ثُمَّ اسْتَرَشَدَ فَإِنَّهُ يَهْدِيهِ وَيُرْشِدُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ"⁽¹⁾، فَتَكُونُ (أَل) حِينِيذٍ لتعريف الجنس الاستغراقي، ويكون حُكْمُ حَجَبِ الهداية عن كل ظالم وكل قومية ظالمة قانونًا إلهيًا عامًا عادلًا.

دلالة صَوْغِ ﴿الظَّالِمِينَ﴾ اسم فاعل، وإشارةً جمعيه:

وفي صَوْغِ ﴿الظَّالِمِينَ﴾ اسم فاعل إشارةً إلى رُسُوحِ خُلُقِ الظلم في اليهود، ودوامهم عليه، واطمئنانهم إليه حتى استمرَّوهُ، وما عادوا يَسْتَقْبِحُونَهُ، ولا يَتَوَرَّعونَ عنه، وأنَّهم "الَّذِينَ تَعَمَّدُوا الظُّلْمَ بِمُنَابَذَةِ الْهُدَى، الَّذِي هُوَ الْبَيَانُ الَّذِي لَمْ يَدْعَ لِبَسًا، حَتَّى صَارَ الظُّلْمُ لَهُمْ صِفَةً رَاسِخَةً"⁽²⁾، "والمَرَادُ بِهِمُ الَّذِينَ سَبَقَ فِي عِلْمِهِ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، وَإِلَّا فَقَدْ هَدَى كَثِيرًا مِنَ الْكُفَّارِ"⁽³⁾.

كما فيه إيحاءٌ بأنَّ مَنْ استمرَّ الظلم وتشرَّبَهُ صارَ سلوكًا لازمًا له ثابتًا فيه، وأنَّ هدايةَ الله تعالى محجوبةً عنه بسبب الظلم.

وفي جَمْعِ ﴿الظَّالِمِينَ﴾ لَفَتْ إلى كثرتهم في النَّاسِ، وأَسَاقَ مع نُصُوصِ الشَّرْعِ الحَنِيفِ القَاطِعَةِ بِأَنَّ ﴿أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾^(٤) [البقرة: 243]، و﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾^(٥) [يوسف: 103].

نكتةٌ حذف متعلق الظلم في ﴿الظَّالِمِينَ﴾:

لم يُنصَّ النَّظْمُ الكريم على مفعولٍ مخصوصٍ لـ ﴿الظَّالِمِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، والتَّقديرُ: ﴿الظَّالِمِينَ﴾ "أنفُسَهُمْ بتكذيب الأنبياء"⁽⁴⁾، كما ظلمَ اليهودُ رسولَ الله ﷺ بتكذيبه، أو ﴿الظَّالِمِينَ﴾ آياتِ الله تعالى، و﴿الظَّالِمِينَ﴾ عبادَ الله تعالى في كلِّ جيلٍ وقَبيلٍ.

(1) للاتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/10.

(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 57/20.

(3) خان محمد صديق، فتح البيان في مقاصد القرآن: 133/14.

(4) الواحدي، التفسير الوسيط: 295/4.

ولطيفة هذا الحذف إفادة العموم والشمول، والقطع بأن جنس الظلم - بغض النظر عن المظلوم مسلماً كان أو كافراً - عاقبته وخيمة، وعقوبته أليمة، والعياذُ بالله تعالى من الظلم والظالمين.

❁ الفروق المعجمية:

الأسفار والكتب:

السَّفر: الكتاب الكبير، وقال الزَّجاج: الأسفار: الكتبُ الكبار، وقال بعضهم: السَّفرُ الكتابُ يتضمَّن علومَ الديانات خاصَّةً. والذي يوجبُه الاشتقاقُ أن يكونَ السَّفرُ: الواضحَ الكاشفَ للمعاني، من قولك: أسفَرَ الصُّبحُ إذا أضاء، وسفَرتِ المرأةُ نقابَها إذا ألقتهُ فانكشفَ وجهُها، وسفَرتُ البيتَ: كَنَسْتُهُ، وذلك لإزالةِ التُّرابِ عنه حتَّى تنكشفَ أرضُهُ، وسفَرتِ الرِّيحُ التُّرابَ أو السَّحابَ إذا قَشَعَتْهُ فانكشفَتِ السَّماءُ⁽¹⁾.

السَّفرُ:
الكتابُ الكبير،
المتضمَّنُ لعلومِ
الديانات،
والكتابُ أعمُّ
من ذلك

(1) مؤسسة النشر الإسلامي، معجم الفروق اللغوية الحاوي لكتايب العسكري والجزائري، ص: 278.

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والستون،
سورة الخشر من الآية 11 إلى سورة المنافقون الآية 04
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447 هـ - 2026 م
© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026 م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والستون، سورة الخشر من الآية 11 إلى سورة المنافقون الآية 04
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغامي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2026.
مج. 61، 814 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك: 978-9948-645-72-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 61: المجلد الحادي والستون، سورة الخشر من الآية 11 إلى سورة المنافقون الآية 04.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-
ألفاظ أ-العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي: 978-9948-645-72-6

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-6860354 بتاريخ 2026/01/07 م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"